

تاريخ المدينة ونظريتها :

المدينة والدولة في اليمن : في الألف الأول قبل الميلاد (*)

أ. ج. لوندين

يمكننا الآن القول إن أقدم مراحل الحضارة اليمنية القديمة التي يمكن دراستها تلك المرحلة الواقعة في الألف الأول قبل الميلاد. ففي الأعوام الأخيرة فقط أمكن التوصل إلى أن أقدم النقوش اليمنية المكتشفة تعود إلى القرنين التاسع والعاشر قبل الميلاد^(١). وتبقى تلك النقوش الأقدم استثناءً (بين سائر النقوش التي تعود إلى حقب أحدث). لكن طابع تلك النقوش (حتى ما تأخر منها) تبقى متشابهة من حيث الموضوعات، وطرائق البناء الكتابي، والصياغة طوال الألف الأول السالف الذكر. لذلك نستطيع التقرير أن مرحلة البزوغ في تاريخ جنوبي الجزيرة، كما يمكن الاستنتاج من المصادر المعروفة، تمتد من نهايات الألف الثاني قبل الميلاد، وحتى القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. فمن حيث المرحلية (الاجتماعية والسياسية) تبدو الحقبة المذكورة بمثابة البداية الأولى

(*) عن: الشرق القديم: المدن والتجارة (من الألف الثالث وحتى الألف الأول قبل الميلاد)، يريفان، ١٩٧٣، ١٦٢ - ١٧٧. والمقالة في الأصل بالروسية. لكن التعريب هنا عن ترجمة ألمانية. وقد قام بالترجمة كل من الدكتور عبدالله الشيبة، مدرس التاريخ واللغات السامية بجامعة صنعاء، ورضوان السيد.

(١) A.G. Lundin: Die Eponymenliste von Saba, Sammlung Glaser V, SBAW 248, Wien 1965, p. 92-116.

للحضارة، بداية نشوء المجتمع الطبقي والدولة. وتشير المصادر المتاحة عن هذه الحقبة إلى وجود بقايا كثيرة لعلاقات «بدائية» في مجال التنظيم السياسي؛ والتي تذكرنا بتنظيمات مشابهة بالمجتمعات البدائية في سومر وبلاد اليونان القديمة^(٢). ويسمح ذلك كله باعتبار الحقبة موضوع البحث، المرحلة الأولى في نشوء المجتمع الطبقي بالعربية الجنوبية^(٣).

يُعتبر الألف الأول قبل الميلاد حقبة متأخرة نسبياً في تاريخ البشرية، وهي لذلك مرحلة تاريخية تتميز بتطور قوى الإنتاج، والعناصر الثقافية. وقد استطاعت اليمن، التي كانت لها علائقتها (المتطورة والمتشابكة) بأقاليم البحر المتوسط المتطورة والمتقدمة، أن تُفيد بشكل واسع من ذلك التقدم الذي بلغته الإنسانية آنذاك. ففي المجال الاقتصادي بلغت العربية الجنوبية مستوى عالياً يمكن مُقارنته بذلك المستوى الذي بلغته بلدان الشرق الأوسط في تلك الحقبة. فعلى الرغم من أن للبحث العلمي عن تلك الحقبة ما يزال في بداياته؛ وعلى الرغم من قلة المصادر المتاحة؛ فإنه يمكن التقرير هنا أن العربية الجنوبية بلغت مرحلة الإنتاج الزراعي المكثف؛ في مجال إنتاج الحبوب، وفي مجال زراعة الأشجار. لقد وصلت زراعة الأشجار المثمرة إلى مستوى متطور وبخاصة أشجار النخيل. كما كانت هناك تربية للحيوانات الداجنة. ولعبت الزراعات التقنية دوراً مهماً مثل النباتات الليلية ونباتات الألوان؛ وبخاصة النباتات العطرية؛ التي بلغت شهرة عالمية انطلاقاً من جنوبي الجزيرة، واستُعملت داخل اليمن على نطاق واسع، كما انتشرت بسائر بلدان الشرق الأوسط^(٤). وتُعتبر زراعة أشجار البخور وإنتاجه ذات أهمية بالنسبة لبحثنا إذ إنها تسمح لنا بالتعرف على نوعية السلع ذات المنشأ الزراعي في عمليات التبادل التجاري.

(٢) مقال للوندين بالروسية في Kasina 46, 1962, p. 207-208.

(٣) يمكن القول إنه حتى أقدم النقوش المعروفة لها نماذج سابقة عليها، وتشير إلى تطور طويل سابق. فالألقباء كانت موجودة ومكتملة، وكذا أشكال الحروف، وطرائق وصيغ كتابة النقوش. لكننا لا نملك حالياً أي شيء عن المراحل السابقة.

A. Grohman: Südarabien als Wirtschaftsgebiet, I. Wien 1922.

(٤)

استند النظام الزراعي باليمن إلى نظام متطورٍ للرّي قائمٍ على الرّي الصناعي . وما تزال البقايا الكثيرة للسدود، والأقنية، ومجامع المياه، والسواقي الفرعية ؛ دليلاً واضحاً على الازدهار الزراعي القديم . وتلك المنشآت مبنية بحجارةٍ منحوتةٍ بشكلٍ جيد، وفي تآلفٍ مع البيئة والظروف المحيطة^(٥)؛ بحيث يمكن استنتاج المستوى العالي من التطور الذي بلغته حرفة البناء، وتقنيات النحت .

أما تطور الثروة الحيوانية فالدليل عليه ليس فقط تلك الأعداد الكبيرة من غنائم الحيوان التي تذكرها النقوش في غزوات الملوك والأمراء، بل أيضاً الاتساع الكبير الذي بلغته تربية الإبل . وعلمنا أن ننبه هنا إلى الدور المهم الذي لعبه الجمل كواسطة نقلٍ أمنت اتصالاً دائماً بين دول جنوبي الجزيرة وبلدان الشرق الأوسط القديم .

وفي مجال الحرفة والصناعات اليدوية يمكن هنا أن نُشير إلى المستوى العالي الذي بلغه ذلك كله باليمن كما تدلُّ عليه بقايا السدود، والمعابد، والرسوم الجدارية، والتماثيل الحجرية، والتماثيل البرونزية الرائعة بوجهٍ خاصٍ، والتي تعني ازدهاراً في مجال الصناعات المعدنية . وبلغت التجارة درجة «عالية» من التطور والتقدم . أما في المجال الداخلي أو مجال التبادل الداخلي بين الأقاليم المتجاورة فقد ازدهرت العمليات التجارية بسبب اختلاف المناخ في نواحي اليمن، وبالتالي اختلاف المنتجات مما يشجع على تبادلها . ثم كان هناك ذلك التبادل بين الفلاحين، ومرعي الماشية في أقاليم البلاد المختلفة . وبالنسبة للتجارة الخارجية فقد كانت هناك تجارة البخور العالمية والتي كانت تنطلق من اليمن المنتج لتلك السلعة الشهيرة - كما كان هناك دور اليمن كوسيط تجاري تنتقل عبْرهُ السلع بين بلدان الشرق الأوسط وشرق إفريقيا . ومنذ أوائل الألف الأولى قبل الميلاد بدأت قوافل الإبل المحملة بالسلع تنطلق من اليمن وإليها محملة بمختلف السلع التي

R. Bowen: Irrigation in Ancient Qatabān (Baihān); In: Archaeological Discoveries in (٥) South Arabia, I, Baltimore 1958, p. 43-132.

تنتجها اليمن أو تلعبُ دور الوسيط في نقلها من موانئها وإليها^(٦).

ولا أدلّ على التطور الثقافي الذي بلغته اليمن في الوقت نفسه من ظهور حروف الكتابة اليمنية أو الألفباء اليمنية المكتوبة في هذه الحقبة المبكرة (فهي أقدمُ بأجيالٍ من الكتابة اليونانية، ومعاصرة فيما يبدو للألفباء الفينيقية).

أما الظروف الاجتماعية فقد بلغت في تطورها وتعقدها المستوى الذي بلغته التطورات الاقتصادية. فقد كانت هناك مفاهيم للملكية، وللتمايز الاجتماعي. كما كان هناك تطورٌ في مفهوم الملكية الخاصة^(٧)، ونظامٌ معقّدٌ للتنظيم الاجتماعي. وما تزال الدراسات اليمنية القديمة في مراحل أولى بحيث لا يمكن الوصول إلى تحليلٍ للبناء الاجتماعي لليمن، وتحديدٍ لمراحل التطور المبكر لمجتمعاتها. وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الخصوصيات التي تتميز بها المصادر المتاحة إذ تقتصر على النقوش الصخرية في غالب الأحيان. لكنّ هذا لا يعني أننا لا نعرف شيئاً عن مجتمع اليمن المبكر. إذ تحفل المصادر بالإشارات إلى شرائح وطبقات اجتماعية، ومؤسسات للدولة ذات طبيعة إدارية أو قانونية، وأشكال مختلفة من الملكية، ويشير ذلك كلّ إلى حدٍّ ما للطبيعة الطبقية للحضارة اليمنية القديمة^(٨). ويكون علينا هنا أن نشير مرة أخرى إلى خصوصيات المصادر النقشية ومن ضمنها أن أظهر وجوه البنية الاجتماعية التي تعرضها بنية الدولة. ويُعتبر هذا التوثيق للدولة في النقوش أساساً لإعادة تركيب تصوّرٍ مقاربٍ للبنى والظروف الاجتماعية السائدة آنذاك. ونعالج في هذه المقالة وجهاً من وجوه البناء الاجتماعي السياسي آنذاك استناداً إلى المصادر السالفة الذكر ومعلوماتها. والوجه المعنيّ: العلاقة بين الدولة والمدينة باليمن القديم.

تشير النقوش العربية الجنوبية إلى وجود خمس دولٍ في اليمن القديم: سبأ، ومعين، وقتبان، وأوسان، وحضرموت. والنقوش الكتابية المستعملة في

R.Bowen: Ancient Trade Routes in South Arabia, in; op. cit 35-42.

(٦)

(٧) مقال بالروسية لـ G.M. Baner في PS 11, 1963, p. 45-57.

(٨) مقال بالروسية لـ G.M. Baner في SJ I, 1965, p. 313-335.

كلّ دولةٍ من تلك الخمس ذات لهجةٍ خاصةٍ أو أنها لغةٌ خاصة^(٩). وهي تختلف فضلاً على ذلك فيما بينها من حيث التعبير، والمصطلحات المستعملة، ومجمع الآلهة الموجود، والموضوعات... إلخ. وتُعتبر دولةُ سبأ أهمّ تلك الدول، كما أن معرفتنا بها أكثر اكتمالاً ووضوحاً. ولذا، فسنقتصر في هذه الدراسة على الاهتمام بدولة سبأ، والنقوش المتوافرة عنها.

امتدت سيطرة دولة سبأ على أكثر أراضي اليمن الحالية؛ من مثل المراكز الرئيسية بشرق اليمن: مأرب، وصرواح، وواحة رغوآن. ونستطيع استناداً إلى بحوث السنوات الأخيرة أن نمُدّ نطاق الدراسة إلى الأنحاء الوسطى مثل أرحب وصنعاء. ومما له دلالة أننا نجد نقوشاً سبئية في الشمال أيضاً حيث الأقاليم التي كانت تقع تحت سيطرة دولة معين. وكذا في الجنوب، مثل أبين التي كانت تحت سيطرة قتيبان^(١٠). وتُثبتُ النقوش التي خَلَفَهَا المَكْرَب السبئي كرب إيل وتر ابن ذمار علي الثاني [RES 3945,3946] أنه قام بحملاتٍ عسكرية شملت أكثر أنحاء اليمن القديم من نجران في الشمال وحتى عدن في الجنوب. لكنّ عشوائية النصوص الكتابية التي عثرنا عليها حتى الآن، وقلة البحوث الأثرية، لا تسمحُ بتحديدٍ دقيقٍ لحدود الدولة السبئية؛ فضلاً على إمكان تحديد ذلك في حَقِّ معينة. فهناك حالاتٌ قليلةٌ فقط نستطيع فيها بشيءٍ من الاطمئنان تحديد حدود بين دولتين مثل تلك التي كانت بين سبأ وقيتان؛ وفي بعض الحالات استنتاج متغيرات الحدود مثل انتقال إقليمٍ من يد دولةٍ إلى سيطرة دولةٍ أخرى^(١١). وهذا مع ملاحظة «غموض الموقف» في بعض الأقاليم كما تشير إليه النقوش التي عُثِرَ عليها في أبين^(١٢) ونشق^(١٣). لكنّ على رغم ذلك

(٩) يبدو أنّ كلّ النقوش الأوسانية مكتوبةٌ باللهجة القتبانية؛ لكنّ النصوص المعروفة منها قليلة بحيث لا يمكن الحديث عن خصوصياتها.

(١٠) H. Wissmann: Zur Archäologie und antiken Geographie von Südarabien, Istanbul 1968, p. 56-65.

(١١) Wissmann; op. cit 98-112.

(١٢) و(١٣) تقع نشق على مقربة من المدن المعينية، ويفصلها عن أراضي سبأ إقليم يثل الذي يعتبر ثاني أهمّ نواحي الدولة المعينية.

= J. Ryckmans: Some Recent Views on the Public Institutions of Saba, in: PSAS, London

كلّه؛ إذا تجاوزنا المناطق النائية عن المراكز الرئيسية، والتي وُجدت فيها بعض النقوش السبئية؛ يمكن القول إنّ الأجزاء الرئيسية التي كانت تسيطر عليها دولة سبأ مع مطالع الألف الأولى قبل الميلاد، كانت تشمل قسماً كبيراً من بلاد اليمن من واحة الجوف في الشمال وحتى الحدود الحالية لجمهورية اليمن الديمقراطية في الجنوب. والواقع أنّ الظروف الجغرافية للعربية الجنوبية ما كانت تسمح بقيام دولة مركزية موحدة وقوية. إذ تغصّ اليمن بالسلاسل الجبلية الحائلة بين المناطق، والواحات المنعزلة التي تفصل بينها أقاليم صحراوية أو شبه صحراوية. وما لا شكّ فيه أنّ الظروف الجغرافية تلك كانت تنعكس في التنظيم الإداري للدولة السبئية. وقد سبق لنا أن عالجنا بنية الدولة السبئية في عملٍ مستقلٍّ^(١٤)، لكننا ركّزنا هناك على المعالم الإدارية العامة للدولة ومؤسساتها؛ أمّا تنظيمها الداخلي فيحتاج إلى دراسةٍ خاصة.

وتبدو في النقوش السبئية الباقية من حقبة المكرّبين؛ وبخاصّةٍ RES 3943، 3945، 3946 (بعض الخصائص التي ينبغي التنبّه إليها)؛ إذ تظهر نواحٍ صغيرة باعتبارها وحدات سياسية على علاقةٍ على نحوٍ ما بالدول الكبرى التي كانت موجودةً آنذاك: سبأ ومعين وقتبان وأوسان. ويظهر ذلك بشكلٍ خاصٍّ في RES 3945؛ وهو النقش الذي يحدّثنا عن حملات المكرب السبئي كرب إيل وتر ابن ذمار علي الثاني. فمن هذه الوحدات السياسية ما يبدو تابعاً للدولة السبئية رغم وقوعها خارج حدودها المعروفة. فالنقش RES 3943، 3 يذكّر فيه لعذر إيل ملك ناحية مهأير، وRES 3945 يذكر ملوك نشان (سطر رقم ١٥)، وهرم وكنهو (سطر ١٧)، وفننان (سطر ١٨). وتُعطي النقوش المذكورة هؤلاء الحكّام لقب ملك مما يفيد إمكان اعتبارها وحدات سياسية مستقلة على نحوٍ ما. لكنّ الغالب في النقوش عدم تحديد طبيعة تلك النواحي والاكتفاء بأسمائها المجردة: سعدام (سعدم)، ونقبتام (نقبتم)، وظبّر (ظبر)، وظلّام (ظلمم)،

وأروِي (أروي) [RES 3945,3] وهكذا دواليك. لكن يمكن في مثل هذه الحالات أيضاً اعتبار النواحي المذكورة ممالك؛ لأنَّ سَبَل، وهرم، وفننان تردُّ أحياناً بأسماؤها المجردة. ولا بدّ من متابعة قراءة النقش للتعرف على أسماء ملوكها. وهكذا، فالواجب هنا مقارنة النقشين أو النصين:

- ي وم / م خ ض / س ب ل / وهرم / و ف ن ن / .. ووس ط /
أ ه ج ر / س ب ل / وأ ه ج ر / ف ن ن / و ه ر ج ه م / و ش ل ت /
أ ل ف م / و ه ر ج / أ م ل ك ه م و: «عندما قهر سبل وهرم وفننان. . . ودمّر
مُدُن سَبَل ومُدُن فننان، وقتل منهم ثلاثة آلاف، وقتل ملوكهم»
[RES 3945,18] و

- ي وم / م خ ض / س ع د م / .. ووس ط / ك ل / أ ه ج ر ه م و /
و ق ت ل ه م و / ش م ث ت / أ ل ف م: «عندما قهر سعدم. . . ودمّر كلَّ
مدنها، وقتل منهم ثلاثة آلاف» [RES 3945,3]^(١٥).

أمّا النقش [RES 3946] الذي يتحدث فيه الملك نفسه كرب إيل وتر ابن
ذمار علي الثاني عن إنجازاته السلمية فترد فيه أيضاً أسماء أماكن كثيرة داخلية
تحت سيطرة الملك أو ملكه. لكنَّ الأماكن المذكورة لا تُسمَّى ممالك، كما أن
حكّامها لا يُسمّون ملوكاً أبداً. ويرد اسم أحدهم ملقباً مرةً واحدة: حضرهمو،
ابن خال أمر (بكر) مفعلم [RES 3946,4]. وفي حالات أخرى تُذكر أسماء
تذكر أسماء هؤلاء مع نسبتهم بذو أو بذي إلى قبائلهم؛ ومن بينهم حَضَرهُمُو
السالف الذكر ابن خال أمر. ففي [RES 3946,2]: حضرهمو / ذ م ف ع ل م =
حضرهمو ذو مفعلم، و: ع م و ق ه / ذ م ر م [RES 3946,2]،
و: ي ع ت ق / ذ خ و ل ن [RES 3946,3]، و: ر أ ب م / ب ن /
خ أ ل أ م ر [RES 3946,4]، و: خ ل ك ر ب / ذ غ ر ن [RES 3946,4] لكننا
لا نستطيع للأسف أن نحدّد بدقة معنى هذه النسبة لأنَّ الأشخاص المذكورين

(١٥) علينا هنا أن نلاحظ أنَّ أكثر المدن العربية الجنوبية تُذكر في النقوش بأسماؤها المجردة بدون أيّ إضافة أو وصف.

في هذه النصوص غير معروفين من نقوش أخرى. أما الأماكن الواردة في النصوص السالفة الذكر فإنها عندما تُذكر في نصوصٍ أخرى تُسمّى مُدناً (= هجر) وذلك من مثل نشان، وهرم، وكمه، ومفعل. إلخ. وبعض هذه الهجر أو المدن يمكن تحديد أماكنها حتى اليوم، وهي كثيرة الورد في النقوش.

على أن النقش RES 3945 يصف أحياناً تلك الأماكن وصفاً دقيقاً. وفي هذه الحالة يُذكر اسم المكان أو المدينة: وأهجرهو: أي ومدنهم. وهذه الصيغة تُذكرُ بها مدينةٌ معروفةٌ تماماً لدينا هي نشن أو نشان المدينة المعينية المعروفة؛ ففي RES 3945,14: وي وم / م خ ض / ن ش ن / و ف ط / أه ج ر ه و: «وعندما أخضع نشان، ودمّر مدنهم». وعادة كرب إيل عندما يتحدث عن افتتاح أقاليم جديدة، أو أخذ ممتلكات أن يُتبع ذلك بصيغة مألوفة: و ف ط / (ك ل) / أه ج ر ه: أي ودمّر كل مدنهم.

ويُستعمل المصطلح نفسه للدلالة على أجزاء الدولة السبئية وأقاليمها. فقد ورد ذلك في مطلع النقش RES 3946,1: أ ل ت / أه ج ر م / وأ ب ض ع م: «هذه هي المدن والأقاليم...». لكنّ الملاحظ أن مصطلحاً يُستعمل هنا أيضاً هو: أ ب ض ع م: أقاليم أو نواحي. والمصطلحان نفسيهما يردان في RES 3945,6 للدلالة على أجزاء ونواحي مملكة أوسان. يقول كرب إيل عند الحديث عن عودة السبئيين من أوسان: وه أ ت و / ب ن / أ ب ض ع / ذ أ و س ن / وأ ه ج ر ه و: «وساق معه... من نواحي أوسان ومدنها». وربما استُعمل المصطلحان للدلالة على وحدات أصغر أيضاً^(١٦).

يُستعمل المصطلحان هجر (الجمع: أهجر)، وبضع (الجمع: أبضع، بضع) بكثرة في RES 3945,46 وهكذا نستطيع أن نستنتج الاختلاف المتخفي وراءهما، أو بمعنى آخر الفرق بين المدينة والناحية أو الجزء. ففي الحالتين

(١٦) قارن على سبيل المثال: RES 3945,9: س ي ب ن / و ب ض ع ه و / وأ ه ج ر ه و: سيان ونواحيه ومدنه.

يُستعمل المصطلحان للدلالة على بقعة أو مكانٍ هو جزءٌ من مملكة: سبأ أو أوسان. . إلخ أو من وحدة أصغر. لكن مصطلح المدينة: هجر يرد أحياناً مستقلاً، كما يرد أحياناً أخرى متبوعاً باسم العَلَم للمدينة. بينما في حالة البضع أو الجزء لا يرد مستقلاً، كما لا يتبعه اسم عَلَم بل يرد كجزءٍ من وحدة أكبر مذكورة في النص: وك ل/ ب ض ع/ ع ب د ن: أي كل ناحية عبدان^(١٧). أما معنى البضع فيحدّد A.Beeston بدقة في عبارة: «البضع هو الناحية المحيطة بالمدينة، والتابعة لها إدارياً»^(١٨). وهكذا نصل للاستنتاج أن التقسيم الداخلي للدولة السبئية كان إقليماً في عصر المكربين، وكان وحدته الأساسية: الهجر أو المدينة - وهذا مع أنّ هناك أنواعاً أخرى من المستقرات الحضرية كانت ترد بالاسم نفسه: أهجر.

على أنّ التساؤل الذي يعرض هنا يتصل بمدى التأكد من اعتبار «المدن» التي يتحدّث عنها النقشان RES 3945,46 (أو بعضها على الأقل) أجزاء من دولة سبأ؟ أليس من الممكن أن تكون تلك المدن وحداتٍ مستقلة أو ذات استقلال ذاتي أو دويلات احتلتها السبثيون RES 3945 أو دويلات متحالفة مع المكربين أو خاضعة لنفوذهم RES 3946؟. وفي الواقع، فإنّ قسماً من هذه المدن نعرف من نقوش أخرى أنها دولٌ مستقلة (مثل أوسان ومدن أوسان) أو أنها صارت تابعة للدولة العينية فيما بعد (نشان، وكمهيو، ويثل). لكن بين الأماكن المذكورة في النقشين مدناً لا شكّ أنها كانت جزءاً من الدولة السبئية في عصر المكربين (مثل نشق 17, 14, RES 3945، وكُتِل RES 3946,1). لكن من جهة ثانية، فإنّ النقوش السبئية تتحدث عن أملاكٍ أو مستقرات خاصة ضمن دولة سبأ. لكننا لا نستطيع أن نستنتج من ذلك الكثير لضالة المعلومات المتاحة. وتذكر خواتيم النقوش السبئية التي كتبها أفراداً إلى جانب المكربين أسماء

(١٧) النصّ RES 3946,8 الذي تردّ فيه المفردات: ون ب، وف ط ر م، وق ن ت يبدو أنها أسماء لأماكن أو نواحٍ (بضع).

(١٨) A. Beeston: Sabaeen Inscriptions, Oxford 1937, p. 67; N. Rhodokanakis: Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, II, SBAW 198. Wien 1922, p. 87-88.

أخرى^(١٩). وفي العادة، فإن تلك الأسماء الإضافية تشير إلى أشخاص؛ لكنّ بينها ما يشير إلى أماكن مثل مدينة: ك ت ل م «كُتَل» (قارن بـ CIH 4847, 498, 496, 494, 493)، وهي مدينة سبئية معروفة جيداً سبق أن ذكرناها من قبل. ويمكن القول إنّ المكان الذي يرد أسمه ناقصاً في GL 1522^(٢٠): هل م (الحرف الأول ساقط) يشير إلى مدينة أيضاً. ومثل ذلك ي ث ع م في GL 1128+1129^(٢١). وهكذا، فإنّ نقوشاً كثيرة تُختتم بما يمكن ترجمته: باسم المدينة؛ قارن بـ RES 2743, 2749... إلخ.

وقد سبق أن ذكرنا أنّ خواتيم تلك النقوش تذكر أحياناً كثيرة إلى جانب المكرّين أشخاصاً آخرين تختلف طرائق ذكرهم عن ذكر المكرّين: ي د ع أ ب (= يدع أ ب) (CIH 494, 96, 98)، و: أ ب ك ر ب (= أ ب ك ر ب) (RES 4438)، و: ب ع ث ت ر (CIH 421, RES 4921)، و: ع م ري م (= عمريام) (RES 4226)، و: س م ح ري م (= سمحريام) (RES 4438)... إلخ. وذكر هؤلاء دائماً بعد المكرّين يدلّ على أنهم يحتلون مرتبةً ثانويةً بالقياس إليهم، بل ربما كانوا مرؤوسين لهم^(٢٢). فالغالب أنّ أسماء هؤلاء هي أسماء لحكام محليين. لكننا لا نعرف للأسف الألقاب التي كانوا يتخذونها إذ إنهم يُذكرون في النقوش بأسماء العلم السالفة الذكر فقط: وهناك نقش واحد فقط (CIH 491) يُذكر فيه لقبٌ لواحدٍ من هؤلاء فيقال: «نشأ أمر كبيرتين» ومع ذلك فإنّ الحاكم المحلي الثاني أ ب ك ر ب الذي يُذكر قبل نشأ أمر ليس له لقب.

وفي ثلاث حالات نلاحظ أنّ الشخص المهدى وباسمه القربان والنقش هو الوالد (أ ب هـ و، أ ب هـ م ي: (GL 1131+1132+1133, CIH 418, Fa 69)). ويكتسب النقش Fa 69 أهمية «خاصة» لأنّ الكاتب أو المهدى يذكر لقبه: م ل ك / أ ب ر ع م = ملك أربعام. ويبدو أنّ والده كان يحمل اللقب

CIH 418, 21, 491, 94, 98, RES 4226, 4438; Fa 69; GL 1128+1129.

(١٩)

Wissmann; op.cit. 241-242.

(٢٠)

(٢١) يكون علينا أن نفهم المفرد أخيراً باعتباره اسم علم.

(٢٢) تتضمن الخواتيم في النقوش دائماً أسماء مكرّين، ولا تنفرد فيها أسماء الحكام المحليين مطلقاً.

نفسه مع أنه لا يذكر ذلك في النقش. ومن هذا كله نعلم أن ذكر اللقب لم يكن أمراً لازماً في النقوش، بخلاف لقب المكرَّب الذي كان ذكره ضربة لازب.

ويقودنا ذلك كله إلى الاستنتاج أن كل الذين يُذكرون آخر النقش دون أن يحملوا لقب مكرَّب هم في الحقيقة حكامٌ محليون لمدنٍ هي أجزاء من دولة سبأ. أما ألقاب هؤلاء فتبقى غير واضحة إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يردُّ في نقش متأخر زمانياً عن الحقبة التي نبحثها = CIH 376 Ja 557 إذ يُذكر فيه: م ل ك / م ر ي ب (= ملك مارب)^(٢٣). وبذلك نعرفُ لقبين محتملين لأولئك الحكام المحليين: ملك وكبير. والملاحظ أن هناك لقبين كانا يُطلقان على حكام الديولات وهما: ملك وبكر (= أول؟)^(٢٤). أما اللقبان اللذان نعرفهما للحكام الكبار في هذه الفترة فهما: المكرَّب والملك^(٢٥).

أما الحكام المحليون فأكثرهم وضوحاً بالنسبة لنا من الناحية التاريخية حكامُ كُتَل، لورود أسمائهم في عدة نقوش. ونعرفُ من النقوش اسمي اثنين منهم هما: يدع أب (CIH 494, 96, 98)، وأخ كرب (CIH 498). أما يدع أب فلا يُذكر في الخاتمة فقط بل في النصِّ أيضاً ضمن «الصيغة التاريخية» المعروفة: ي و م / ش ي م ه و / ي د ع أ ب / ع ل ي / ك ت ل م / و ب ع ل ي / ب ن ي / ب ي ت / ذ ت / ح م ي م: «يوم ثبت يدع أب حاكماً لكتل، وبانياً معبد ذات حميم». ويُذكرنا النقش وتاريخه بالنقش الناقص الذي وُجد في مكان آخر ليس بعيداً عن موطن نقشنا هذا (Ry 584) والذي يرد فيه: ي و م / ش م ه و / ي د ع أ ب / ب ن / س م ه ر ي م / ب ع ل ي / ورغم نقص النصِّ في آخره؛ فإن اتفاق الصيغة، واتفاق اسم العلم يؤدي بنا للقول إن يدع أب في النصِّ الأول هو يدع أب بن سمهوريام في النصِّ الثاني؛ مما يعني أن سلطان يدع أب هذا - وهو حاكمٌ محليٌ - امتدَّ على مساحةٍ لا

(٢٣) كثيراً ما يحمل الحكام المحليون أسماء سبئية معروفة من مثل أب كرب، ومعد كرب، ويعثر.

(٢٤) اللقب نفسه بكر وكبير يظهر لدى قبيلة خليل من مثل النقش: ب ك ر / خ ل ل /

و ك ب ر ه م و: أول أو بكر خليل وكبيرهم.

(٢٥) مقالٌ بالروسية للوندين في VDI No. 30, 1970, P. 3-15.

بأس بها^(٢٦). وربما أمكن الجمع بين سمهوريام في هذا النص، وذلك «الحاكم المحلي» الذي يرد ذكره في النقش رقم RES 4438 في الخاتمة على النحو التالي: وب/ س م هـ ري م/ وب/ أب ك رب: «وباسم سمهوريام وباسم أبي كرب». فإذا صحَّ أنَّ سمهوريام هذا هو الشخص نفسه الذي يردُّ ذكره كأب في النصوص الأخرى فإنَّ هذا يعني أنَّ الحكَّام المحليين ضمن دولة سبأ كانوا أسراً مستقلةً تتوارث السلطة في مجالها الخاص. ومن الملاحظ أنه ليس هناك فرقٌ من حيث الشكل بين نقوش الحكَّام المحليين، وتلك الخاصة بالملوك. والعمل الوحيد الذي يبدو للحكَّام المحليين من خلال النقوش هو مثل العمل الذي تنسبه النقوش إلى المكربين: البناء والتشييد. ففي الصيغة السالفة الذكر: ي وم/ ش ي م يظهر يدع أب مشرفاً على بناء المعبد رغم أنه ليس صاحب مشروع البناء بل كُلف بذلك من جانب شخصٍ آخر^(٢٧). وهذا على الرغم من أنَّ المعبد المذكور لم يكن مخصَّصاً لآلهة سبأ الرئيسية من مثل عثر أو الملقه بل لذات حميم، التي تلعب دوراً ثانوياً في هرمية الآلهة عند السبئيين^(٢٨).

وبالوسع الإشارة هنا إلى أنَّ المدن السبئية في عصر المكربين كانت تملك معابد لآلهة محليين، موجودين في هرمية الآلهة عند السبئيين، لكن في مواقع ثانوية. ومعبد ذات حميم^(٢٩) في كُتْل كان من هذا النوع^(٣٠). لكننا لا نعرف إن كانت المعابد في مدن سبأ الرئيسية مثل مارب وصرواح بخولان لآلهة محلية أو

(٢٦) تشير الصيغة التاريخية في النقش CIH 494, 496 إلى أنَّ كُتْل جزء فقط من ممتلكات يدع أب، وكان يحكمها شخصٌ من تعيينه. لكننا لا نعرف أين كانت عاصمة تلك الدولة.

(٢٧) انظر عن أعراف ملوك سبأ المتصلة بذلك في وقت متأخر مقالاً للوندين بالروسية بعنوان: Carskaja vlast, p. 6-7.

(٢٨) تظهر ذات حميم في خواتيم نقوشٍ قديمة تعود إلى عهد المكربين؛ وتذكر فيها، وفي نقوشٍ خاصةٍ أخرى ثلاثة بعد عثر والملقه.

(٢٩) لا نعرف حتى الآن الاسم القديم للمدينة. وهناك فقط حتى الآن الاسم الناقص حرفاً أو حرفين من أوله: ح ل م.

(٣٠) لا يُذكر سَمِيع في نقوش المكربين بل في نقوش أفرادٍ ويُذكر فيها بعد ذات حميم وذات بعدان.

أنها كانت مختصةً بالآلهة الرئيسية مثل المقه^(٣١).

وهكذا نستطيع تحديد «الوحدات الإدارية» بالدولة السبئية باعتبارها أراضي سيادية: مدن (هجر) تحيط بها وتتبعها نواحٍ (بضع) ومستقرات أصغر تتمتع باستقلالٍ ذاتي، وتُسمَّى (هجر) أيضاً. وكانت لتلك المدن معابدها الخاصة، وآلهتها المحلية، وحكامها الذين كان أحدهم يُلقَّب (كبير) أو ملك. وربما كان في المدينة أيضاً مجلسٌ للشيوخ (مَلا)، ففي النقش RES 4907 يردُّ ذكر: م ص ود/ ع ررم، أي مجلس شيوخ أو مَلا عرارم. ويبدو أن عرارم هي عرارات نفسها المعروفة بهذا الاسم فيما بعد في واحة رغوان^(٣٢). وما نذكره هنا تؤيِّده النقوش المتأخرة العائدة للقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد (RES 3951) والتي تتحدَّث عن مسود أو مصود صرواح، وعن كبير صرواح، وعن الفئات الاجتماعية الأخرى. فالنصُّ يذكر كبير صرواح أو حاكمها كمدينة (هجر صرواح)، كما يذكر مجلس شيوخها، وشعبها (= وش ع ب ن / ص روح) أي سائر مواطنيها الأحرار.

وتفاجئنا هذه الصيغة المذكَّرة بالبولس Polis اليونانية القديمة. إذ يعني ذلك أنَّ الوحدات الإدارية (المدن) التي كانت تتكوَّن منها الدولة السبئية كانت تتمتع بحكمٍ ذاتي، وإدارةٍ ذاتيةٍ، يديرها مجلس شيوخ، ربما كان منتخباً من مواطني المدينة الأحرار (ش ع ب). أمَّا مصطلح شعب باليمن، والذي اعتدنا على ترجمته بـ «قبيلة» فإنه ما عاد تجمعاً قبلياً آنذاك بل أصبح يشير إلى مجموعةٍ من الناس، تستقرُّ على مساحةٍ معينةٍ من الأرض. لكنَّ هذه «الجماعة الحضرية» تحتفظ ببعض سمات التنظيم القبلي من مثل ادعاء القرابة الدموية في بعض الحالات، وبالتالي الوعي التضامني القبلي^(٣٣). كما أنه كان على رأس تلك المدن

(٣١) علينا أن نلاحظ أنه وإن كان «المقه بعل عوام» مجارب إلهاً سبئياً عاماً؛ وإنَّ «ألمقه بعل أو عال» بصرواح كان إلهاً محلياً.

(٣٢) Wissmann: Zur Geschichte; op. cit. p. 234.

(٣٣) نستطيع الاحتفاظ بمفرد أو مصطلح القبيلة في الترجمة أو التعبير عن شعب على أن نلاحظ ضرورة الاستمرار في البحث عن تحدِّ أكبر.

(كبير) وفي حالاتٍ أخرى ملك.

ومن الغريب أنّ هذا التقسيم الإداري الذي قام عليه نظام الدولة السبئية لا يبدو في إدارتها العليا، ومراتبها السلطوية الكبرى. إذ لا نجد للمدن، وتنظيمها المدني ذكرًا في «المجلس الأعلى» الذي يعاون المكرب أو الملك في الحكم. ذلك أنّ مجلس المملكة أو مَلَأها يتكون من رأس الدولة: المكرب أو الملك، ومن ممثلين للقبائل الست، وعضو يعمل كسكرتير للملأ على ما يبدو. وعمل الإداري أو الكاتب أو السكرتير كان يمكن أن يتولاه أحد ممثلي القبائل الست، وكان ذلك يجري مداورةً فيما بينهم. و«أهل الشورى» هؤلاء كانوا ينقسمون إلى قسمين، ولكل قسم نسبة تمثيلية مختلفة. القسم الأول مكوّن من «القبائل المؤسسة»: عاد إيل، وخليل، ونزحت، وهي تعتبر نفسها بطوناً تنضوي تحت التحالف القبلي الذي يُعرف أحياناً بسبأ. والقسم الثاني مكوّن من القبائل المنضوية لاحقاً في الدولة وهي: فيشان، وأربعان، وأحشران؛ وتعتبر نفسها فروعاً من فيشان. وتملك في الملأ أو مجلس الشورى نصف نسبة التمثيل التي تملكها قبائل القسم الأول^(٣٤). وقبائل الشورى هذه لا تظهر بدورها في التقسيم الإداري المدني السالف الذكر للمملكة. فنحن لا نعرف مدينةً أو مكاناً كانت تملكه إحدى قبائل الشورى. ومن هنا، فإننا لا نستطيع تحديد أماكن إقامة أو استقرار تلك القبائل. فقبيلة خليل - على سبيل المثال - التي نجد لها ذكراً ومعبداً في هجر أرحب^(٣٥)، ونجد لأحد فروعها (عنانان) ذكراً في مكان قريب من ذلك^(٣٦)؛ لها ذكر ونقوش أيضاً في مأرب وصرواح بخولان وفي ريام؛ أي في كلّ المناطق الرئيسية للدولة (Fa 30, 103, GL 1533, CIH 361, 393)^(٣٧). أمّا نقوش المساند المهداة لعثر ذو ذبان إلهة خليل فإنها تنتشر في صنعاء وأرحب وواحة رغوان شمال مأرب، أي في أكثر أجزاء الدولة السبئية

(٣٤) لوندن؛ مقال بالروسية.

Wissmann; op. cit. 299.

(٣٥)

Wissmann; op. cit. 301.

(٣٦)

(٣٧) مقال للوندن بالروسية في PS 15, 1966, p. 51.

ذلك إلى أنه في الحالة الوحيدة التي تُذكرُ فيها إحدى تلك القبائل بطريقة أكثر تحددًا (فيشان في RES 3946,4) لا تُسمَّى بالاسم المتعارف عليه للقبائل في النقوش السبئية (شعب) بل تسمَّى : ح و^(٣٩). ونجد هذا المفرد في النقوش اليمينية المعينية مرةً أخرى (RES 2771,6)^(٤٠) في العبارة التالية: ك ل / م ع ن م / وذ / ي ث ل / ح رس م / وح وس م : «كل معين وذوئشل، أحرارهم، وجوهم»؛ فوضع حر في مقابل حو دفع الدارسين للقول إنَّ حو تعني غير الحرّ أو الرقيق^(٤١). وقد أدّى ذلك إلى الاستنتاج أنَّ فيشان لم تكن تتوافر لها سمات القبيلة المعترف بها بشكلٍ كاملٍ، وأنها كانت في الحقيقة تابعةً للمكرب^(٤٢). لكنني أرى أنَّ المفرد حو يعني ما يعنيه المفرد حي (بطن أو عشيرة) بالعربية الشمالية تماماً. والعرب يضعونه في أعلى درجات النسب القبلي قبل شعب^(٤٣). وأرى أنَّ هذا هو ما يعنيه المفرد أيضاً بالعربية الجنوبية. ويبدو هذا المعنى واضحاً في RES 3945,3,8: ي ش ف م و / ح و ه و / ف ي ش ن : انضم إلى قبيلته (حيّة) فيشان. وهذا يوضح ما ورد في النصّ السابق إذ يكون المعنى: أحرار معين وأهل حيّهم - فيكون أهل الحيّ أعلى مرتبةً من الأحرار^(٤٤).

ويمكن أخيراً القول إنَّ مصطلحي شعب وحو يشيران إلى نوعٍ من الارتباط الدموي القبلي المتحرّر من المكان والزمان. ويمكن أن يكون ذلك هو مركز ترابط القبائل من أهل الشورى أو الملاء فيعلل عدم ظهورهم في التنظيمات الإدارية

. Wissmann; op. cit 232

(٣٨)

(٣٩) في النقوش المتأخرة: ش ع ب ه م و / ف ي ش ن .

(٤٠) السياق في RES 4176,3 غير واضح بحيث لا يمكن الاستناد إلى ورود المفرد هناك من أجل فهمه .

. Beeston; op.cit 8

(٤١)

(٤٢) مقالان لـ G.Baner بالروسية .

(٤٣) بيرشتاين وكازيميرسكي : القاموس الفرنسي العربي، باريس ١٨٤٦، م ١/١٢٣٤، وجهرة النسب لابن الكلبي، نشرة كاسكل، لايدن ١٩٦٦، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٤٤) افادني البروفسور Vinnikov أنَّ حر لا تعني أنه كذلك بالمولد بل أنه محرّر .

المرتبطة بالمكان (المدن)، بينما لا تظهر مجالسُ المدن في الملأ الملكي الأعلى. ويعني هذا في الغالب أن مجتمع الدولة السبيئة القديمة كان ذا ولائٍ مزدوج. فمن جهةٍ كان كُلُّ أحرار المجتمع أعضاءً كاملي العضوية في المدن والأماكن التي يقيمون فيها، وبهذه الصفة كانوا يشاركون في مجالسها. ومن جهةٍ ثانيةٍ كانوا جميعاً ذوي انتسابٍ بعيدٍ إلى إحدى القبائل الست. ولذا لا تظهر تنظيمات المُدن في الملأ الشوري الملكي، كما لا تظهر القبائل الست في مجالس المدن^(٤٥).

ومن جهةٍ ثانيةٍ فإنَّ بنية الدولة السبيئة كانت مزدوجة على أنه لم يكن هناك تقاطعٌ في ذينك الخطين المزدوجين. الخطُّ الأول هو خط الدولة أو السلطة المركزية وعلى رأسها الملك أو المكرب، ومجلس الشورى أو الملأ، وتملك آلهةً وطنيةً عامةً، وسلطاتٍ واسعة في مجال الحرب، وبناء المعابد والسدود، وسنِّ القوانين الجنائية والتنظيمات الإدارية. والخط الثاني في بنية الدولة تلك المدن/الدويلات التي كانت تملك كُلَّ الأجهزة الإدارية الضرورية: الملك أو الكبير، ومجلس الشيوخ، والوجهاء، والمعبد والإله المحلي. وتتمتع المدن باستقلاليةٍ واسعةٍ فتدخل انطلاقاً من وضعها المتمايز في تحالفٍ مع المكرب أو في نزاعٍ متفاقم، وتبيعه أراضٍ ومزارعٍ وقرى أو تشتريها منه. إلخ. صحيحٌ أن هناك دلائل قويةً على تبعية بعض المدن (من مثل صرواح ونشق) للملك تبعيةً كاملة؛ لكنها قليلة العدد من جهة، وأوضاعها متقلبة بتقلب الظروف السياسية.

(٤٥) لا ينبغي هنا أن نعتقد أنَّ القبائل ما كانت بالعربية الجنوبية القديمة غير بنىً وهمية. لقد كان لها وجودٌ فعلي، وكانت لها معابدها الخاصة، ومواطن تواجدها الخاصة والمعروفة. ولا شك أنه بقيت تجمعات شعبية تعتقد الانتماء الدموي الواحد، وترفض الاختلاط بالتجمعات الأخرى. فإذا لاحظنا أنَّ الوحدات المحلية أو الاجتماعية كانت تصرُّ على انتهاء واحدٍ لجُدٍّ مزعوم حسبما تفعل القبائل؛ أدركنا أن التمييز بين الوحدات الجغرافية والأخرى القبلية في اليمن القديم بالغ الصعوبة أحياناً. قارن بحالة مدينة مفعلم حيث يُسمى حاكمها نفسه: بكر، أي أول - شأن القبائل. وفي اليمن الحالية بعد مرور ثلاثة آلاف سنة على قيام المجتمع الطبقي لا يزال قسمٌ كبيرٌ من أفراد المجتمع وجماعاته يفهم تلك الوحدات والتجمعات على أنها تجمعات قبلية.

ورغم كلّ ما قدمناه؛ فإنّ علاقات المدن بالدولة في اليمن القديم تبقى محوطةً بالغموض، وتحتاج إلى مزيدٍ من الدراسة، والدراسة المقارنة مع أوضاع مُشابهة في العالم القديم. فقد نشأت في بعض النواحي تحالفات دينية طقوسية أو طقوسية/سياسية أدّت إلى توحيد دولٍ كانت مستقلةً تماماً قبل ذلك (من مثل الوضع في سومر، وبلاد الإغريق). تلك التحالفات يمكن أن تكون قد تمت باليمن بدايةً على مستوى محلي أو إقليمي Nomoi كما كان عليه الأمر في مصر القديمة التي تحولت إلى دولةٍ واحدةٍ شديدة الاندماج.

